

مدخل إلى الشعر الفصيح والشعبي

قصيدة حُوريّة الموج لمصطفى خريف وقصيدة عروس البحر لعبد السلام لخضر
نموذجاً

في المعجم المحيط
الحُوريّةُ : فتاة أسطوريّة بالغة الحُسن تتراءى في البحار والأنهار والغابات وهي أيضاً
المرأة الحسناء ساحرة الجمال كأنها حوريّة من حوريات الجنّة
وفي المعجم الوسيط كذلك (الحُوريّةُ) فتاة أسطوريّة تتراءى في البحار والأنهار
والغابات

وهذه قريبة من لسان العرب الذي فصل الجذر تفصيلاً إلى أن بلغ قوله
والحواريات من النساء : النقيات الألوان والجلود لبياضهن
ومنه قولهم : امرأة حواريّة إذا كانت بيضاء
منه قولهم أيضاً - الحواريّ : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه
والكلمة في اللغة اليومية التونسية قد وردت في أغنية شعبية ظهرت بعد الحرب
العالمية الثانية

- أمان أمان يا لُماني * سافر عليّ وخلاني
إلى أن تقول - دَوْر دَوْر * خبز سخون وكعك محوّر
!فما أبلغ لغتنا التونسية الفصيحة

وقد ورد في المعاجم العامة أنّ حوريات البحر أو عرائس البحر أو خيّلان أو ابنة
البحر أو ابنة الماء أو - عروسة البحر - في الكلام اليومي هي حوريات أسطورية
خيالية تسكن في البحار والبحيرات والأنهار وتجمّع بين صفات البشر وخصائص
الأسماك، فالقسم العلوي وهو القسم البشري - يتمتع بكامل صفات البشر العلوية من
الرأس إلى المنتصف بينما القسم السفلي - وهو القسم السمكي - يتمتع بجسم
سمكي من المنتصف إلى الذيل ويوجد منها الذكر والأنثى وحوريات البحر عادة
يكنّ جميلات وساحرات ولهنّ حكايات عديدة يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل وقد

كما لم تخلُ قصصُ ألف ليلة وليلة من ذكرهن ففي الليلة السادسة والثمانين بعد
الستمائة وما تلاها من ليالٍ ورد فيها ذكرُ حورية البحر

بلغني أيها الملك السعيد، أن جُلنار البحرية لما سألتها الملك شهرمان حكمت له
قصتها من أولها إلى آخرها، فلما سمع كلامها شكرها وقبلها بين عينيها وقال لها:
والله يا سيدتي ونور عيني إني لا أقدر على فراقك ساعة واحدة وإن فارقتني مُتُّ
من ساعتني فكيف يكون الحال؟ فقالت: يا سيدي قد قرب أوان ولادتي ولا بد من
حضور أهلي لأجل أن يُباشروني لأن نساء البر لا يعرفن طريقة ولادة بنات البحر،
وبنات البحر لا يعرفن طريقة ولادة بنات البر فإذا حضر أهلي أنقلب معهم وينقلبون
معني، فقال لها الملك: كيف يمشون في البحر؟ فقالت: إننا نمشي في البحر كما
أنتم تمشون في البر ببركة الأسماء المكتوبة على خاتم سليمان بن داود عليه
السلام، ولكن أيها الملك إذا جاء أهلي وإخوتي فإني أعلمهم أنك إشتريتني بمالك
وفعلت معي الجميل والإحسان فينبغي أن تُصدق كلامي عندهم ويشاهدون حالك
بعيونهم ويعلمون أنك ملك ابنُ ملك فعند ذلك قال الملك: يا سيدتي إفعلي ما بدا
لك مما تحبين فإني مطيع لك في جميع ما تفعلينه فقالت الجارية: اعلم يا ملك
الزمان أننا نسير في البحر وعيوننا مفتوحة وننظر ما فيه وننظر الشمس والقمر
والنجوم والسماء كأننا على وجه الأرض ولا يضرنا ذلك واعلم أيضاً أن في البحر
طوائف كثيرة وأشكالاً مختلفة من سائر الأجناس التي في البر، واعلم أيضاً أن جميع
ما في البر بالنسبة لما في البحر شيء قليل جداً، فتعجب الملك من كلامها ثم إن
الجارية أخرجت من كتفها قطعتين من العود القُماري، وأخذت منه جزءاً وأوقدت
مِجمر النار وألقت ذلك الجزء فيها وصفرت صفرة عظيمة وجعلت تتكلم بكلام لا
يفهمه أحد فطلع دخان عظيم والملك ينظر، ثم قالت للملك: يا مولاي قم واختر في
مخدع حتى أريك أخي وأمي وأهلي من حيث لا يرونك فإني أريد أن أحضرهم وتنظر
في هذا المكان في هذا الوقت فقام الملك من وقته وساعته ودخل مخدعاً وصار
ينظر ما تفعل، فصارت تُبخر وتُعزم إلى أن أزيد البحر واضطرب وخرج منه شاب

مليح الصورة بهي المنظر كأنه البدر في تمامه بجبين زهر وخذ أجمر وشعر كأنه
الدر والجوهر، وهو أشبه بأخته ولسان الحال في حقه يُنشد هذين البيتين

البدر يكمل كل شهر مرةً
وجمال وجهك كل يوم يكملُ
وحلولة في قلب بُرج واحد
ولك القلوب جميعهن المنزل

ثم خرجت من البحر عجوز شمطاء وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام
المباح

http://al-hakawati.net/arabic/stories_tales/lailaindexa43.asp

3

وقد استلهم في العصر الحديث بعض الشعراء العرب حورية البحر وجعلوها رمزا
للحسن والعشق مثل الشاعر مصطفى خريف في قصيدة - حورية الموج - التي
يستهلها بقوله

شفّ صدر البحر عن سرّ الجلال وطففت فيه اللآلي
فوق موج فاض من سحر الجمال فاق تصوير الخيال
جال في حسن وإشراق
مستجيشا مثل أشواقي
حين أكسوها بديعا من بياني
هل على صدرك فاضت موجتان
بالهوى ترتعشان؟

<http://www.wata.cc/forums/showthread.php?53392-%D8%AD%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%88%D8%AC-%D9%84%D9%84%D8%B4%D8%A7%D8%B9%D8%B1->

%D8%A7%D9%84%D8%AA
%D9%88%D9%86%D8%B3%D9%8A-
%D9%85%D8%B5%D8%B7%D9%81%D9%89-%D8%AE
%D8%B1%D9%8A%D9%81

والشاعر بدر شاكر السياب في قصيدة - حورية النهر - التي يقول في نهايتها

رأى -ويح عينيه- حورية* فجئن بها ساعة ثم راح
فَقَدْ يُخبر النجمُ عنه الرعاة* فيبكون حزنا و تبكي البطاح
و مات الشقي الحزين فعادت* تكفنه بالشرع الرياح

[http://www.adab.com/modules.php?
name=Sh3er&doWhat=shqas&qid=68164&r=&rc=156](http://www.adab.com/modules.php?name=Sh3er&doWhat=shqas&qid=68164&r=&rc=156)

وقد إنبرى الشاعر عبد السلام لخضر المناعي أخيرا للكتابة في عروس البحر ضمن ديوان الشعر باللغة العربية اليومية وقد قرأ قصيدته في نادي الشعر أبي القاسم الشابي وهي بعنوان - عروسة البحر -

وَلده وتَجِيب الولآده
الله واحدٌ واكبر
جايا مع المُوْجة تتهاذى
وضآية تُبهرُ
قُللتها شُباكي مَداده
غزلها عليك خطر
قالتلي كانت صيادة
أنا عروسة البحر *

شَبَّت وين غريق شباكي
تتصقّر في البحر يحاكي
قللتها الصبر إذا يراك

ما يطيفُوش صَبْر
نصِيدك وين تروحي معاك
للنهاية لعمر
*

نصطادك في كل مكان
حتى في شعاب المرجان
لو كان يعم الطوفان
نرصيك على بر
لا يطولك إنس ولا جان
لا شمس ولا قمر
*

قالتلي كلامك عاجبني
وبحر هواك مغلبني
خوفي من حبك يا خذني
لا زاد ولا سفر
وأماج الشوق تغلبني
بكلامك نغتر
*

قُلتها عليك لآمان
عهدك في قلبي ممان
نفرشك شط الريحان
على حرير معطر
ويكفيني حُبك سلطان
من دون البشر

لئن ظَلَّت عروس أو حورية البحر هي الشخصية المحورية التي تدور حولها القصائد السابقة فإننا نلاحظ اختلاف الشعراء في العلاقة بين كلٍّ منهم وبينها بالإضافة إلى تنوع السجلات اللغوية والصور والإيقاع من قصيدة إلى أخرى

فقصيدة مصطفى خريف تبدأ بمنظر شامل للبحر الذي تلوح منه حورية جذلي
بجمالها فينبري الشاعر لوصف ملامح حُسنها وهو في حالة إنسجام معها لكانهما
يرقصان على نغمات سنفونية رائعة وتنتهي القصيدة بتمام اللقاء عند الوصال فحركة
القصيدة تسير في تنام وتصاعد حتى تبلغ الأوج

وارتمينا في انقباض وامتدادٍ وامتزاجٍ واتحادٍ
وهي تنزو بابتهاج وتنادي فيُلَبِّبُها فـوادي :
يا حبيبي أنت لي وحدي
فاقترب واشمم شذى نهدي

أما قصيدة بدر شاكر السياب - حورية النهر - فإن ظلال الرومنطيقية تبدو واردة
عليها في جميع أبياتها منذ المطلع

نفوسٌ مُعذبه هائمة * تَخَبُّطُ في الظلمة القاتمة
أجَدَّ لها الليلُ أحزانها * و تَذْكار أيامها الباسمة
فالحزن والكآبة باديان في القصيدة لذلك كان إيقاع الرتابة الثقيل قد حط بكلكله
على الأبيات التي انساقت ضمن مسار تنازلي إلى الانحدار والتلاشي
ومات الشقي الحزين فعادت * تكفنه بالشرع الرياح

كذلك هو البيت الأخير من القصيدة موت وكفن وتعبير عن مأساة الفتى الباحث
عن الخلاص لدى حورية النهر التي حسب أنّ النجاة والخلاص على يديها ولكن
مصيره المحتوم كان هو الغالب على أمانيه وأحلامه لذلك تبدو حورية بدر شاكر
السياب مثل السراب الذي لا يُشفي من غليل الآمال على عكس حورية مصطفى
خريف التي شَفته من شوق الوصال

أما قصيدة الشاعر عبد السلام لخضر المناعي فإنها من الشعر المحكي باللغة
العربية التونسية وهو شعر متنوع الأغراض والأوزان وتعود أصوله الأولى إلى شعر بني
هلال الذي دوّن ابنُ خلدون نماذج منه في الفصل قبل الأخير من المقدمة غير أن

الأدب الشعبي بمفهومه الواسع ظل على هامش المجالات الثقافية سواء في التعليم بجميع مراحلها أو في الإعلام ولا يتجاوز حضوره الضامر المجالات الفلكلورية في المناسبات وذلك لعمرى يمثل شرخا كبيرا في ثقافتنا طالما ظلت النخبة المتعلمة بعيدة عن الوجدان الشعبي العارم وهو شرخ لم تفلح السياسات الرسمية منذ دولة الاستقلال في العمل على سدّه أو التقليل من الفجوات فيه ممّا يسّر لثقافة التهميش والتغريب والتطرف أن تجد لها الإستجابة لدى كثير من شرائح الإجتماعية

تبدو القصيدة قائمةً على ثنائية تقابلية بين الشاعر وعروس البحر التي جاءت تتهدى على الشاطئ في دلال وكبرياء بل وفي نبرة من التحدي لعله من ضمن الغنج الداعي إلى الغواية والإفتتان فقد خرجت تستعرض مفاتها أمام الشاعر الصياد الذي أعلن هو كذلك عن مهارته وقدرته بفضل شبابه المديدة

ولده وتجييب الولاده
الله واحداً واكبر
جايا مع الموجة تتهدى
وضاية تُبهر
قُلتها شباكي مداده
غزلها عليك خطر
قالتلي كانت صيادة
أنا عروسة البحر

ثم تمضي القصيدة في سجل من المبارزة الكلامية تنضح بالإغراء المتبادل فهو إبراز للقوة والقرة لدى الشاعر الصياد في قوله

نصطادك في كل مكان
حتى في شعاب المرجان
لو كان يعم الطوفان
نرصيك على بر

لا يُطولك إنس ولا جان
لا شمس ولا قمر

أما بالنسبة لعروس البحر ففي حديثها إنكسار ولين وإدعاء بالضعف والسذاجة غير أنه في الحقيقة هو من جميل المكر الفاتك حيث تقول

قالتلي كلامك عاجبني
وبحر هواءك مغلبني
خوفي من حبك يا خذني
لازاد ولا سفر
وأموج الشوق تقلبني
بكلامك نغتر

وبعد ذروة التصعيد الإستعراضي تنفرجُ العلاقة بينهما حيث تنتهي القصيدة بحالة الإنسجام التام وبالسلام النهائي بعد تلك المناورات الحربية التي تخللتها فقد توجَّ الشاعر الصيَّادُ عروسَ البحر أميرة البحر والبرِّ بل قد كتب لها فرمان السُّلطنة على مُلكه

قُلْتُهَا عَلَيْكَ لَامَانَ
عَهْدِكَ فِي قَلْبِي مَصَانِ
نَفْرَشْلِكَ شَطُّ الرِّيحَانِ
عَلَى حَرِيرِ مَعْظَرِ
وَيَكْفِينِي حَبْكَ سُلْطَانِ
مَنْ دُونَ الْبَشَرِ

6

إن هذه الصور المُفعمَّة بالدلالات الحربية بين الشاعر والحبيبة تستند على مخزون نفسي زاخر ضمن العلاقة بين الذكر والأنثى على مدى التاريخ وقد وصفها الشاعر ابنُ حمديس الصقلِّي منذ ألف سنة تقريبا 447 - 527 هـ / 1053 - 1133 بأكثر وضوحا في

صُورَ فِيهَا الْكَثِيرَ مِنَ الْإِيحَاءِ وَالِدَّلَالَاتِ

و ذَاتِ فَوَائِبَ بِالمسكِ ذَابِتِ
بَلَعْتُ بِهَا المُنَى وَهِيَ التَّمَنِّي

مُنْعَمَةٌ لَهَا إِعْزَازُ نَفْسِ
يُصْرَفُ دَلَّهَا فِي كُلِّ فَنِّ

شَمُوشٌ مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ قَامَتْ
تَدَافِعُ فَاتِكَا عَنْ فَتْحِ حِصْنِ

بِخِدِّ لَاحٍ فِيهِ الوَرْدُ غَضًّا
وَ غِصْنِ مَاسٍ بِالرَّمَانِ لُدْنِ

فَطَالَتْ بَيْنَنَا حَرْبُ زَبُونِ
بَلَا سَيْفٍ هُنَاكَ وَ لَا مِجَنِّ

وَ فَاضَتْ نَفْسُهَا الحِمْزَاءُ مِنْهَا
وَ فَاضَتْ نَفْسِي البِيضَاءُ مَنِّي

وَمِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ عَنِ العُنْفِ أَوْ الصَّرَاحِ فِي القِصَائِدِ الغَزَلِيَّةِ نَادِرٌ جَدًّا غَيْرُ أَنْ
الشَّاعِرَ - أَبُو أَمِينِ البِجَاوِيِّ - وَهُوَ شَاعِرٌ قَدِيرٌ بِالفِصْحَى وَالدَّارِجَةِ التُّونِسِيَّةِ مَعَا
سَمِعْتُ مِنْهُ قَصِيدًا طَرِيفًا فِي الغَزْلِ يُوصِي فِيهِ البَحْرَ بِأَنْ يَكُونَ لَطِيفًا بِجِسْمِ حَبِيبَتِهِ
صَائِنًا لِمَحَاسِنِهَا رَفِيقًا بِهَا فِي مَوْجِهِ وَعِنْدَ مَدَّهِ وَجِزْرِهِ ثُمَّ يَهْدِيهِ بِصِرَامَةٍ إِنْ نَظَرَ نَظْرَةَ
الرَّيْبَةِ إِلَى حَبِيبَتِهِ بِأَنْ يَجْعَلَهُ قَاعًا صَفْصَفًا أَوْ صَحْرَاءَ قَاحِلَةً فِي رِشْفَتَيْنِ فَحَسَبَ

مَآئِي نَخْرَتِكَ قَبْلُ حِينٍ وَحِينِ
وَ صَيِّ المَوْجِ يَلِينُ كَيْ يَقْلِبُهَا
وَ كَيْ يَهْزُهَا خَلِيَهُ يَبْقَى حَنِينِ
عُضَاهَا رَهِيْفٌ نَخَافُ لَوْ تَعَبَهَا

إحسانو يبقى في رقابي دين
يمشيش موجك في الخفاء يشاغبها
يهزُّ الطمع ويحلُّ فيها العينُ
ولحام بيها ومسّها وقربها
أنا نشربك ما تفوتشي فَمِينُ

إنّ صورةَ الشاعر يُهدد البحر بشربه في جُرعتين على أقصى تقدير لا نظير لها في
مُتون الشعر الفصيح ونحن نجد لها أثرا في ديوان القصائد الشعبية مثل قول أحد
شعراء الجنوب في أوائل القرن العشرين مفتخرا بقوته وقدرته فهو أكبر من الأرض
والسماء والبحر جميعا

دَرْتُ لِرُضْ مُدَاس
قَعْدُو قَدَامِي حَفَايَا
دَرْتُ السَّمَاءِ كَبُوس
قَعْدُو أَوْذَانِي عَرَايَا
وَدَرْتُ الْبَحْرَ فِي جُغْمَا
قَعْدُو حَنَاكِي طَوَايَا

وفي هذا السياق الملحمي لابد من ذكر صورة عنترة الغزلية التي أَلَمَّت به وهو في
ساحة الوغى حيث قال وقد جمع بين الحب والحرب في لمحة بارقة لا وجود بها
الإبداع إلا نارا

ولقد ذكرتكَ والرماح نواهل
مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسّم

ذلك هو الشعر تعبير عن الوجدان والوشائج في كل مكان وكل زمان وما اللغة إلا

حاملةً للمعاني والدلالات والصور وما أحوج الأدب العربي الفصيح الحديث أن يجعل من الأدب الشعبي رافداً له أساسياً كي يُطور من مواضيعه وأساليبه وأشكاله فكيف يسمح الأدباء لأنفسهم أن يستلهموا من الآداب الأجنبية إلى حدّ النقل والإستنساخ أحياناً ولا يُعيروا اهتماماً يُذكر لأدب مُحيطهم الذي يعيشون فيه فتلك لعمري من مُربكات الثقافة العربية المعاصرة التي تُعاني من الانفصام والضّمور وما على الشعراء الشعبيين إلا أن يطلعوا هُم أيضاً على النصوص الأدبية والشعرية الفصيحة وفي الآداب الأخرى كذلك ليُطوّروا من قصائدهم كي لا تُظل تقليداً جافاً للمواضيع وللمعاني وللصور وللأوزان وحتى لقاموس الشعراء السابقين وعندما يتفاعل شعراءُ الفصحى مع الأدب الشعبي ويتفاعل الشعراء الشعبيون مع النصوص الفصيحة ستنشأ نُقْلة نوعية في مسار الثقافة العربية الحديثة

سوف عبّيد

رادس 29 ماي 2014